

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَإِنْ قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّنِي وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلُّ ما سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ؛ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ

وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]،

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ

النَّهَارَ يُطَلِّبُهُ حِثِّيًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] . وَالرَّبُّ هُوَ

المَعْبُودُ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ».

بدأ رحمه الله بالكلام على الأصول الثلاثة العظيمة وهي: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأصول ينبغي ويجب على كل مسلم أن يدرك إدراكاً تاماً عظمتها وأهميتها وحاجته الملحة إلى معرفتها وضرورته الشديدة إلى الدراية بها والعمل بها وتحقيقها ؛ إذ إن سعادة العبد في دنياه وآخره ونجاته لا تتحقق إلا بتحقيق هذه الأصول الثلاثة ، وقد صح في الحديث عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه من حديث البراء وغيره أن

الميت إذا أدخل القبر أتاها ملكان وسألاه عن هذه الأصول الثلاثة «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» ، كل من مات وأدرج القبر وُجّهت له هذه الأسئلة الثلاثة : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

وجاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً)) ، وطعم الإيمان : أي لذة الإيمان وحلاوته ، فالإيمان له حلاوة لا يمكن أن يذوقها القلب إلا بالرضا بهذه الأصول ، والرضا بهذه الأصول الثلاثة يكون: بالعلم بها ، وباعتقاد ما دلت عليه ، وبالعمل بها . فهذه حقيقة الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ؛ حقيقة الرضا بذلك أن يتعلم هذه الأصول تعلماً صحيحاً وأن يفهمها فهماً صحيحاً ، وأن يعتقد ذلك اعتقاداً راسخاً ويؤمن به إيماناً جازماً ، وأن يعمل بموجبات ذلك ومقتضياته ؛ فهذه حقيقة الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .

ومن عناية نبينا عليه الصلاة والسلام بهذه الأصول توجيهه صلى الله عليه وسلم المسلم عند سماع الآذان عندما يقول المؤذن : «أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله» يشرع للمسلم أن يقول : «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» . وورد أيضاً قول ذلك في أذكار الصباح والمساء أن يقول إذا أصبح ثلاثاً «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً» وثلاثاً إذا أمسى ، على خلاف بين أهل العلم في تحسين الحديث الذي ورد في ذلك أو تضعيفه .

كل ذلكم يؤكد المكانة العظيمة لهذه الأصول الثلاثة وحاجة المسلم إليها واستذكارها وتحقيق مضامينها وترسيخ الإيمان بها وتحديد ذلك كل يوم ؛ في أذكارك وعند سماعك للآذان وأنت تستحضر هذه الأصول الثلاثة مستذكراً لها ، مجدداً الإيمان بها ، حريصاً على تنميتها وتكميلها ؛ كل ذلكم يؤكد على أهمية هذه الأصول الثلاثة وعظم شأنها وحاجة كل مسلم إلى دراستها ومذاكرتها .

وشيخ الإسلام رحمه الله تعالى أكرمهم الله جل وعلا ومنّ عليه بأن أفرد هذه الأصول الثلاثة في رسائل ؛ كتبها بصيغ تناسب طلاب العلم ، وكتبها أيضاً بصيغة تناسب العوام -عوام الناس- ، وأيضاً منّ الله سبحانه وتعالى بأن نفع بهذه الأصول نفعاً عظيماً واعتنى بها الناس عناية بالغة ؛ تدريساً ودراسة ومذاكرة وحفظاً . وعاش على هذه الأصول أقوام أكرمهم الله سبحانه وتعالى وماتوا عليها غير مغيرين ولا مبدلين ، وهذا فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فينبغي على كل إنسان أن يغنم حياته في معرفة هذه الأصول الواجب على كل مسلم أن يتعلمها ، وأن يعتني بدراسة هذه الأصول ، وأن يكثر من قراءتها ومطالعتها ومراجعتها ، وأن يسعى في نشرها بين أهله وأولاده وقرابته وجيرانه؛ نشرًا للخير وتعميماً للفائدة فإن الدال على الخير كفاعله ، ((ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل

أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) ؛ ولهذا من أعظم ما يكون هديةً يقدمها الحاج لأقاربه ولزملائه هذه الأصول التي سيُمتحنون عليها عندما يُدخلون في قبورهم حيث كل واحد منهم يُقال له : «من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟»

والشيخ رحمه الله تعالى أكرمه الله ومنّ عليه بأن جمع خلاصات عظيمة وزيد مفيدة تتعلق بهذه الأصول الثلاثة جمعها من كتاب الله تبارك وتعالى . والشيخ كما يعلمه كل من اطلع على مؤلفاته ورأى مصنفاته هذا دأبه؛ يذكر المسألة مضموماً إليها دليلها "يُشرع كذا والدليل : قال الله تعالى كذا" ، فيذكر المسألة مضموماً إليها دليلها من كتاب الله أو سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا هذا الكتاب «الأصول الثلاثة» هو عبارة عن مسائل عظيمة ومهمة للغاية في هذه الأصول الثلاثة مضموماً إلى كل مسألة دليلها من كتاب الله تبارك وتعالى أو سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا أقول : إن هذه الأصول الثلاثة خير زاد ليوم المعاد ، وجديرٌ بكل مسلم أن تكون عنايته بهذه الأصول واهتمامه بها أعظم من اهتمامه بأي أمرٍ آخر لأنها أساس السعادة وسبيل الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

ثم إن الشيخ رحمه الله لما أفرد هذه الأصول الثلاثة بالتأليف حرص أن يكتبها رحمه الله على صيغة سؤال وجواب ، تيسيراً للفائدة وتقريباً للمنفعة جعلها على صيغة سؤال وجواب ؛ إذا قيل لك كذا فقل كذا ، وإذا قيل لك كذا فقل كذا .. إلى آخر الرسالة . فكتبها على صيغة السؤال والجواب لأن هذه الصيغة من الصيغ البليغة القوية في تمكين الفائدة لدى المتلقي ، وكثيراً ما تأتي هذه الصيغة في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ؛ مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه : ((أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟)) ، ومثل قوله : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟)) ، ولهذا نظائر كثيرة في أحاديثه عليه الصلاة والسلام ؛ يطرح سؤالاً ويجيب عليه ، ويطرح سؤالاً آخر ويجيب عليه ؛ فهذا يكون أبلغ ، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى في آيات عديدة في القرآن : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] ويأتي البيان .

فالشاهد أن الشيخ رحمه الله تعالى حرص على كتابة هذه الأصول الثلاثة بصيغة السؤال والجواب ، ولما كتبها في رسالة أخرى غير هذه الرسالة لما كتبها للعوام أيضاً كتبها بصيغة سؤال وجواب واختصر فيها المعلومات ، وصاغها بأسلوب قريب من أساليب العامة في الحديث واللهجة ؛ كل ذلك من حرصه رحمه الله تعالى . والتي كُتبت للعوام مشهورة بـ«الأصول الثلاثة» ، وهذه مشهورة بـ«ثلاثة الأصول» ؛ تفريقاً بين الرسالتين .

قال رحمه الله تعالى : ((فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟)) ؛ قوله «التي يجبُ على الإنسان» أي على كل مكلف ، صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى . قوله «مَعْرِفَتُهَا» أي: معرفتها واعتقاد ما دلت عليه والعمل بها . المراد بقوله «مَعْرِفَتُهَا» : أي العلم بها واعتقاد ذلك والعمل به .

((فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) ؛ وهنا بدأ كتابه «الثلاثة أصول» بذكر الأصول الثلاثة مجملة ، ثم شرع بعد ذلك في تفصيلها أصلاً أصلاً ، وكل أصل يذكر جملةً من التفاصيل المتعلقة به مع شيء من الدلائل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ((فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) ؛ قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم : «ذكر المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة مجملةً ، ثم ذكرها بعد مفصلة أصلاً أصلاً تتميماً للفائدة وتنشيطاً للقارئ ؛ فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وضبطها بقي متشوقاً إلى معرفة معانيها ، وهي المقصود بهذه النبذة» .

قال رحمه الله : ((فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)) ؛ هنا شرع في التفصيل في بيان الأصل الأول من الأصول الثلاثة وهو معرفة العبد ربه ؛ إذا قيل لك من ربك ؟ ماذا تقول ؟ إذا قيل لك من ربك ؟ أي من خالقك ؟ من رازقك ؟ من المنعم عليك ؟ من المتفضل عليك ؟ من الرب الذي تعبد وتضع له وتسجد له وتركع وتتقرب إليه بأنواع القربات وتصرف له أنواع الطاعات والعبادات وتخلص له دينك ؟ من هو هذا الرب ؟

((إِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ)) ؛ هذا هو جواب هذا السؤال «من ربك ؟» ، من ربك الذي خلقك ورازقك وتفضل عليك بأنواع النعم وتقصد به أنواع العبادة وتخلص له الدين ؟ من هو ؟ قل: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ .

((قُلْ: رَبِّيَّ))؛ الرب معناه : الملك الخالق الرازق المتصرف السيد ، الذي له التدبير لا شريك له في ذلك . ((قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ)) ؛ و«الله» هذا اسم علم على الله جل وعلا ، وهو دال على ألوهيته وعبوديته سبحانه ؛ أنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . دال على ألوهيته ؛ أي على كماله وجلاله وعظمته وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ودال على أنه ذو العبودية على خلقه أجمعين ؛ أي يجب عليهم أجمعين أن يذلوا له وحده وأن يخضعوا له وحده وأن يصرفوا له وحده جميع أنواع العبادة دون سواه .

قال : ((قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي)) وهذا من معاني الربوبية ، من معاني الربوبية التربية ، والتربية هي عامة وخاصة . ❖ عامة لجميع المخلوقات؛ بالإنعام وبالصحّة وبالطعام وبالشراب وبالغذاء وغير ذلك ، فالله جل وعلا رب العالمين ، فكل ما يكون في المخلوقات من إنعام وآلاء وعطاء ومنن إلى غير ذلك كله من الله سبحانه وتعالى ،

فهو رب العالمين ، ربى جميع العالمين بنعمه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] ، ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨] .

❖ وتربية خاصة ؛ وهي خاصة بأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين ، بأن رباهم على الإيمان ووفقهم لهذا الدين وهداهم لصراطه المستقيم ، فهذه منة الله عليهم ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور: ٢١] ، وقال جل وعلا : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٧) فَضلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴿ [الحجرات: ٧-٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَتُوبُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] . فإذا التوفيق للإيمان والهداية للإسلام والإعانة على طاعة الله تبارك وتعالى والسير على صراطه المستقيم هذه تربية خاصة يتفضل الله سبحانه وتعالى بها على من شاء من عباده ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقوله هنا : ((الذي رباني وربّي جميع العالمين بنعمه)) المراد بالربوبية هنا العامة ، لأنه قال : «جميع العالمين»، أما التربية الخاصة ليست لجميع العالمين ، التربية الخاصة على الإيمان والطاعة والتوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى هذه التربية على من يختصهم جل وعلا بكرامته ويحببهم لصراطه المستقيم ويتفضل عليهم بالهداية لدينه القويم . قال : ((الذي رباني وربّي جميع العالمين بنعمه)) ؛ أي بنعمه وآلائه ومننه الظاهرة والباطنة ، وكل نعمة بالعباد فهي من الله ؛ فهو المان والمنعم والمتفضل لا شريك له ، الفضل فضل الله والإنعام إنعامه والأمر بيده تبارك وتعالى ؛ يخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، يتصرف في ملكه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : ((وهو معبودي)) ؛ أي هذا الرب العظيم الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمته هو معبودي ، أي هو الذي أقصده وحده بعبادتي ؛ ذلي وخضوعي ورجائي ورغبي ورهبي ودعائي وذبحي ونذري وصلاتي ونسكي وغير ذلك من أنواع العبادة كل ذلكم أحصه جل وعلا به ، ولا أجعل معه شريكاً في ذلك ؛ لأنه وحده الذي خلقي ، لا شريك له في الخلق ، وهو وحده جل وعلا الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ((فهو معبودي ليس لي معبود سواه)) لا أعبد إلا إياه ، كما أنه سبحانه وتعالى تفرد بالخلق والرزق والإنعام وحده فأنا أفرده وحده بالعبادة ولا أصرف شيئاً من العبادة إلا له . ((ليس لي معبود سواه)) أيأ كان ، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو غير ذلك ((ليس لي معبود سواه)) ؛ أي سوى الله ، لا أدعو إلا الله ولا أذبح إلا لله ولا أنذر إلا لله ولا أصلي إلا لله ولا

أصرف شيئاً من العبادة إلا له ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَسُكُوتِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شريك له ﴿[الأعام: ١٦٢-١٦٣] .

قال : ((وهو معبودي ليس لي معبود سواه)) ما الدليل على ذلك ؟ الأدلة على ذلك كثيرة جداً لكن الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة يذكر المسألة ودليلاً واحداً عليها .

قال : ((والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكل من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم)) هذا هو الدليل ، الدليل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ؛ والحمد : هو الثناء على الله سبحانه وتعالى مع حبه سبحانه ، حمداً له على نعمائه وفضله وعطائه ، وحمداً له على أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله العظيمة سبحانه وتعالى . قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «الله» عرفنا معنى هذا الاسم ودلالته ؛ قد قال ابن عباس رضي الله عنهما : «الله : أي ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عرفنا في كلام الشيخ قال : ((وكل من سوى الله عالم)) ؛ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؛ العالم : من سوى الله ، والله رب العالم كله ، ومعنى كونه جل وعلا رب العالمين: أي أنه مالكهم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ [٧] عمران: ٢٦ ، أيضاً معناه أنه خالقهم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣] ، معنى ذلك أنه تبارك وتعالى سيدهم ومولاهم المتصرف فيهم ؛ خفضاً ورفعاً ، حياة وموتاً ، عزاً ودُلاً ، ليس لأحد غير الله تبارك وتعالى ذلك ، هو وحده المتصرف في هذا الكون لا شريك له ، هو النافع الضار ، هو المعطي المانع ، هو القابض الباسط ، هو المعز المذل ، هو كما قال : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣-٤٤] ، هو المتصرف في هذا العالم كله لا شريك له في شيء من ذلك .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالكهم ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالقهم وموجدهم من العدم ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي المتصرف فيهم والمدير لشؤونهم ، والمخلوقات كلها طوع وتصريفه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، وإذا حكم بشيء وقضى بشيء كان ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، الملك ملكه سبحانه وتعالى والخلق خلقه والعبيد عبيده ونواصي العباد بيده جل وعز ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] في ملكه سبحانه وتعالى ، كل يوم هو في شأن يحيي ويميت ، يعزو يذل ، يعطي ويمنع ، يخفض ويرفع ، الأمر لله سبحانه وتعالى أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً ، وليس لأحد من الأمر شيء ، وفي القرآن قال الله سبحانه لنبيه محمد

صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الأمر لله ، والملك لله ، والخلق تصرفهم بيد الله جل وعلا .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهنا أيضاً وأنت تقرأ هذه الآية ؛ وهي أول آية تواجهك في القرآن بعد البسملة ، وهي دعاء أهل الجنة إذا دخلوا جنات النعيم -نسأل الله عز وجل أن يكرمنا أجمعين بذلك- ﴿دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْبِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] ، فأنت عندما تقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتتأمل فيها وتتدبر دلالتها تعرف نفسك ، إذا قرأت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم تساءلت في ضوء هذه الآية : من أنا؟ ماذا أكون ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ العالم: كل من سوى الله . الوجود وجودان : وجود الله سبحانه وتعالى ، ووجود من سواه ، وهو جل وعلا وجوده أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء ، ووجود المخلوقات بإيجاده سبحانه وتعالى ، العالم كله وجد بإيجاد الله ، والإنسان كان عدم ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١] ، خلقه الله وجعل له السمع والبصر والحواس والقوى ومنّ عليه باللباس والغذاء والطعام . فإذا قرأت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم في ضوء ذلك تأملت وقلت: من أنا ؟ ماذا أكون ؟ العالم : من سوى الله وأنا واحد من هذا العالم ، أنا فرد من ملايين وبلايين المخلوقات التي هي خلق الله جل وعلا ، وجميع هذه المخلوقات كلها رب العالمين مطّلع عليها ، وهي مخلوقات بالملايين والبلايين لا يحصي خلق الله إلا الله جل وعلا ، لا يحصيهم إلا الذي خلقهم سبحانه ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الحج: ٢٨] ، جميع هذه المخلوقات من أناس من بهائم من حشرات من غير ذلك جميعها رب العالمين يعلم بها ويحيط بها ويرى حركاتها وسكناتها ولا تخفى عليه منها خافية ، وأنت واحد من هذا العالم ، مخلوق لله مربوب أوجدك الله سبحانه وتعالى من العدم .

ثم سبحانه الله عجيبٌ حال بعض الناس ! عندما ينسى نفسه ، ينسى أنه خلق من نطفة ، وينسى أنه يحمل دوماً في بطنه العذرة ، وينسى أنه سيكون يوماً في حفرة تأكله الديدان ، ينسى أنه خرج من مخرج البول مرتين؛ من أبيه وأمه ، ينسى ذلك ثم يمشي على الأرض متكبراً متعالياً مختالاً!! حتى يوجد في بعض الناس من يقول : أنا ربكم الأعلى ، ويقول: ما علمت لكم من إله غيري ، ويقول ويقول ويقول ، كل هؤلاء ما عرفوا أنفسهم ، ما عرفوا إلا الشيطان؛ صاروا عبيداً له مطيعين له في كل ما يأمرهم به وما يدعوهم إليه . ولهذا حقيقة لا يعرف نفسه حقيقة إلا المسلم الذي يعرف ربه سبحانه وتعالى الذي أوجده ، ويعرف لم أوجده سبحانه وتعالى ، ويجاهد نفسه ليزيل نفسه له جل وعلا وينكسر بين يديه ويخضع لجنابه سبحانه ؛ يركع له ويسجد ، ويناجيه سبحانه ويكي بين

يديه، ويرجو رحمته سبحانه ويخاف عذابه ، ويجاهد نفسه في حياته كلها على تحقيق طاعته والذل والعبودية له سبحانه وتعالى . فلا يعرف نفسه حقيقة إلا المسلم الذي من الله عليه بالإسلام وهداه لهذا الدين العظيم والصراط المستقيم . قال : ((وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ)) .

قال : ((إِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)) ؛ ما الآيات وما الدلالات وما البراهين التي بها عرفت ربك سبحانه وتعالى ؟ (بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟) ، إذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟ ماذا تقول ؟
قال : ((فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)) ؛ الآيات جمع آية ، والآية : العلامة والدلالة والبرهان والحجة . والمخلوقات : جمع مخلوق وهو : ما أوجد بعد العدم .

((إِذَا قِيلَ لَكَ : بِمَاذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ فَقُلْ : بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)) ، وقل في تتميمك الجواب على هذا السؤال : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا))؛ أعرابي قيل له هذا السؤال، قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : «سبحان الله ! أرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وسماء ذات أبراج؛ ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!» ، أي هذه المخلوقات وهذه الآيات العظيمة العجيبة هذه برهان ودليل على أنه سبحانه وتعالى الرب المدبر المالك المتصرف الذي لا شريك له سبحانه وتعالى في شيء من ذلك ((وَمِنْ آيَاتِهِ)).

ثم قال : ((وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ)) ، و«مِنْ» هنا للتبعض ؛ إشارة إلى بعض الآيات العظيمة ، وإلا حقيقة الأمر كما قال القائل : وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

جميع ما تراه من المخلوقات دليل على خالقها ومبدعها ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦] ، فالخالق لهذه لمخلوقات والموجد لهذه الكائنات بهذا الانتظام البديع والخلق العجيب والتصريف والتدبير؛ هذه آيات باهرات وحجج ساطعات ودلائل بينات على أنه تبارك وتعالى الرب الذي لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه .

قال : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)) ؛ الليل والنهار آية من آيات الله العجيبة ، حيث إنه سبحانه وتعالى جعل هذه الآية العظيمة تمر على الناس بمر الأيام والليالي؛ ليل ونهار وشمس وقمر ، وتمشي بانتظام ودقة عجيبة كما أمرها الله سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] كل منهما يسير بانتظام عجيب ليس أحد منهما يسبق الآخر ، وبمشيان بانتظام عجيب ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] ، فهذه من آيات الله العجيبة؛ تصبح وتسمي وأنت ترى هذه الآية الدالة على كمال الخالق وعظمة المبدع سبحانه وتعالى .

((وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)) كل منهم يجري بحسبان وبأمر الرحمن سبحانه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ، هذه آيات من آيات الله العظيمة جعلها أمام العباد يشاهدونها ويرونها مع تكرر الأيام والليالي ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] .

قال : ((وَمِنْ مَخْلوقاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ)) ؛ هذه مخلوقات عجيبة لله سبحانه وتعالى دالة على كمال ربوبيته وعظمته جل وعلا ؛ الأرضون السبع وما أبدع فيها من جبال وأنهار وأشجار وأودية ومخلوقات ، والسماوات وما جعل فيها من العبر والعظات والآيات .

قال : ((وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا)) ؛ «وَمَا فِيهِنَّ» أي السماوات والأرضين ، «وَمَا بَيْنَهُمَا» أي ما بين السماء والأرض من هواء وسحاب ونحو ذلك ؛ فهذا كله من خلق الله جل وعلا الدال على أنه الرب المعبود بحق وأنه لا معبود بحق سواه .

قال : ((وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى)) هذا الدليل على الأول وهو الآيات ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه آيات من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على وحدانيته .

قال : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ نعم هذه آية عظيمة تشد القلوب والأبصار وحركتها عجيبة وانتظامها عجيب ؛ لكن كل ما ترونه في هذا الكون من أمور عجيبة أو عظيمة أو جميلة كل ذلك لا شيء منه يستحق العبادة لأنها كلها مخلوقات لله تبارك وتعالى ، والمخلوق أياً كان ومهما بلغ في العظمة والحسن والجمال والقدرة ونحو ذلك لا يستحق من العبادة شيء ، العبادة لمن خلقه وأوجده ، أما المخلوق لا يستحق من العبادة ولا شيء يسير .

قال : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ؛ وهذه قاعدة يستفيدها المسلم في هذا الباب ؛ يعني مهما ترى في هذه المخلوقات من الأشياء العظيمة ، إما في حسناتها وجمالها ، أو في قوتها وقدرتها ، أو في مكانتها ومنزلتها ، أو نحو ذلك كل ما تراه لا يستحق من العبادة . الذي يستحق العبادة الخالق لهذه الأشياء الموجد لها من العدم .

قال : ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فهذه قاعدة وأصل عظيم في هذا الباب ؛ أن العبادة لا تكون لأحد أياً كان ومهما كان إلا للخالق العظيم الرب الجليل ، الموجد لهذه الكائنات ، المبدع لهذه

المخلوقات، الذي لا شريك له في شيء من ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال : ((وقوله تعالى)) ؛ هذا الدليل الثاني لقوله «وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ .. الخ» .

قال : ((وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾)) ؛ فهذه مخلوقات عظيمة وكبيرة دالة على أن خالقها ومبدعها هو المستحق للعبادة دون سواه .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ثم ذكر مخلوقاته الدالة عليه ؛ ذكر أولاً : خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق السماوات والأرض بهذه الهيئة العجيبة والصفة العظيمة آية من آيات الله الدالة على وحدانيته وفردانيته سبحانه وتعالى .

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ العرش المجيد العظيم الكريم أيضاً هذا من مخلوقات الله العظيمة ، والعرش سقف المخلوقات وأعلاها ، وقد وصفه الله في القرآن بأنه عرش مجيد ، وأنه عرش عظيم ، وأنه عرش كريم لحسنه وبهائه . وصفه الله جل وعلا بهذه الصفات ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى؛ فإنه أعلى الجنة ووسط الجنة وفوقه عرش الرحمن)) ، فعرش الرحمن جل وعلا هو أكبر المخلوقات وأوسعها وأعظمها ، ولهذا وصفه الله بالمجيد قال : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] ، والمجيد معناه: الواسع . فالعرش أكبر المخلوقات وأوسع المخلوقات ؛ وهذا من آيات الله العظيمة ومن مخلوقاته الكبيرة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

وحتى نتفكر قليلاً ونتدبر في هذا الأمر نستذكر حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي عليه الصلاة والسلام وهو جالس في المسجد الحرام وسألته عن الكرسي ؛ قول الله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة)) يعني قطعة من حديد صغيرة ألقيت في صحراء ؛ ماذا تكون نسبة الحلقة الصغيرة من الحديد التي ألقيت في صحراء واسعة؟! قال : ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة ، وما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا مثل ذلك)) السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة ، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة ، الأرض التي أنت عليها ما نسبتها لعموم الأرض؟ وما نسبتها للأرضين السبع ؟ وما نسبتها للسماوات المحيطة بالأرضين ؟ كل هذه نسبتها للكرسي كحلقة حديد صغيرة ملقاة

في صحراء ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، والكرسي نسبته للعرش كحلقة من حديد صغيرة أُلقيت في صحراء.

هذه آيات عظيمة تدل على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء ذكر الكرسي في آية الكرسي تمهيداً لذكر عظمة الله ، لأنه قال : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ، فذكر الكرسي تمهيداً لذكر عظمته سبحانه . الكرسي محيط بالسموات والأرضون ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، وهذا الكرسي العظيم نسبته إلى العرش كحلقة أُلقيت في فلاة ، والرب جل وعز عظم شأنه وتعالى جدُّه ولا إله غيره أخبر عن نفسه في سبع آيات من القرآن الكريم أنه استوى على العرش ؛ أي علا وارتفع عليه . ونحن نؤمن بما أخبر به ربنا عن نفسه وبما أخبر عنه رسوله عليه الصلاة والسلام ، ونقول كما قال الله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، نقول كما قال الله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥] . ولو قال لنا قائل : أين الله؟ نقول : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، الجواب ما هو يا إخوان عندما يسألك سائل ويقول لك : أين الله ؟ وتقول ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ الجواب هذا ما هو ؟ آية تتلى في القرآن الكريم في سورة طه . فإذا قيل لك : أين الله ؟ اتل هذه الآية : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ؛ أي علا وارتفع جل وعلا . ودعك من أقاويل المبطلين وكلمات الضالين المنحرفين الزائعين ، أجب بكلام الله وبكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإياك أن تؤخذ هنا وهناك بعيداً عن القرآن الكريم وبعيداً عن سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي علا وارتفع عليه ، الاستواء معناه في اللغة: العلو والارتفاع ، ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي علا وارتفع عليه . فإذا قال لك قائل : كيف استوى على العرش؟ ماذا تقول له ؟ الله جل وعلا أخبرنا في القرآن أنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى ، فالذي أخبرنا الله سبحانه وتعالى به نقوله ونؤمن به ونعتقد ونعلن اعتقادنا له ، والذي لم يخبرنا الله سبحانه وتعالى به لا نخوض فيه ولا نتكلم فيه بحرف واحد . ولهذا لما قال رجل للإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة ، لما قال له : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى؟ غضب رحمه الله غضباً شديداً حتى إن جسمه تصبب عرقاً تعظيماً لله سبحانه وتعالى؛ علته الرُحضاء؛ أي تصبب عرقاً ، وقال كلمته العظيمة المشهورة ؛ قال : «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» ، «الاستواء معلوم» أي معناه معلوم أي : علا وارتفع ، «والكيف مجهول» لأننا لم نخبر بالكيفية ، أخبرنا بالاستواء ولم نخبر بكيفيته فلا نخوض في ذلك ؛ ولهذا طريقة السلف في الصفات هي : «أمرؤها كما جاءت بلا كيف» يعني لا تخض بالتكليف ، التكليف باطل ، التكليف

قول على الله بلا علم والله يقول : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، ويقول : ﴿ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ؛ هو جل وعلا مستوٍ على عرشه العظيم المجيد الكريم ويدبر مخلوقاته ويتصرف في الكائنات كيف يشاء ، وتنزل تدابيرها وأوامره وأحكامه وقضاؤه سبحانه ، ولا يتخلف شيء مما قضاه وقدره جل وعلا .

ولهذا ينبغي على المؤمن أن يقوِّي هذه الإيمانيات في نفسه لتقوى صلته بربه . زينب رضي الله عنها ماذا كانت تقول في قصة زواجها ؟ كانت تقول لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام : «زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات» ؛ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] زوّجها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات فكانت تفخر بذلك ؛ فانظر إلى هذا الإيمان بالله جل وعلا وأنه من فوق سبع سموات يقضي ويحكم ويدبر ويسخر ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع عز وجل سبحانه . ولهذا عندما يكون العبد ساجداً يذكر هذه العقيدة العظيمة ويسبح الرب الأعلى في سجوده قائلاً : «سبحان ربي الأعلى» ، وأقرب ما يكون العبد من ربه جل وعلا وهو ساجد .

قال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ» : أي يغطي الليل النهار ، «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا» أي يطلبه سريعاً .

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ كل هذه المخلوقات ﴿ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أي تسير وتتحرك بتسخيره وتديره سبحانه وتعالى ، ليس لها من الأمر شيء ، الأمر لخالقها ومالكها ومسخرها سبحانه وتعالى .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ؛ له الخلق وله الأمر ، أي هو متفرد بالخلق والأمر . والخلق عرفناه وهو : إيجاد هذه الكائنات . والأمر : هو أوامره سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، وأمره : كلماته سبحانه وتعالى ، وكلماته نوعان: كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية دينية . فالخلق لله والأمر لله وفرق سبحانه وتعالى بين الخلق والأمر ؛ وهذا فيه دلالة على أن القرآن وهو من كلام الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقاً ، لأن الله فرق بين الخلق وبين الأمر جل وعلا .

قال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تَبَارَكَ : أي تعظم وجلّ وعز شأنه سبحانه وعظم ؛ وهذا لا يطلق إلا على الله ، «تَبَارَكَ» هذه الكلمة لا يجوز أن تطلق إلا على الله ، لا يجوز أن يقال في أي مخلوق «تبارك» ، هذا أمر لا يطلق إلا على الله ، يمكن أن يقال : «مبارك» ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ [مريم: ٣١] ، ويمكن أن يقال : "بارك

الله فيك" أو نحو ذلك ، أما «تبارك» هذه كلمة لا تطلق إلا على الله سبحانه . قال : { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } .

قال : ((وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)) ؛ أي الرب الذي خلق هذه المخلوقات وأوجد هذه الكائنات وأبدعها سبحانه وتعالى وأوجدتها بعد أن لم تكن هو المعبود ؛ أي الذي لا معبود بحق سواه ، له العبادة وله الذل وله الخضوع كما قال : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ، قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] .

قال : ((وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)) أي الذي يجب أن تصرف له العبادة وحده دون سواه .

((والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾)) ؛ هاتان الآيتان الكريمتان هما أول آيتين وردتا في القرآن في باب الأمر والنهي، فأول ما تقرأ في الأوامر في القرآن: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ، وأول ما تقرأ في النواهي في القرآن : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ ، فأول أمر في القرآن أمر بالتوحيد ، وأول نهي في القرآن نهي عن الشرك والتنديد .

قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فهذا نداء لجميع الناس أن يفرّدوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ، وعرفنا قول ابن عباس رضي الله عنهما « كل أمر في القرآن بالعبادة أمر بالتوحيد» ، ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أفردوه بالعبادة ووحده سبحانه وتعالى

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي تفرد بخلقكم وخلق من قبلكم ، أي كما أنه سبحانه تفرد بالخلق للعالمين لا شريك له في ذلك فيجب أن يُفرد وحده بالعبادة ، لا أن يكون هو الخالق والعبادة تصرف لغيره، وهذا من النبأ العظيم والأمر الغريب في حال كثير من الناس؛ تفرد رب العالمين بخلقهم ورزقهم والتصرف فيهم ثم يفرعون إلى غيره ويلجؤون إلى من سواه!! إذا أراد حاجة ومطلباً ورغبة فزع إلى غير الله من شجر أو حجر أو ميت أو غير ذلك يفرع إليهم في حاجاته ورغباته ، فهذا من الأمر العجيب في حال بعض الناس والله يقول : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } أي أفردوه - جل وعلا - بالعبادة ولا تجعلوا معه شريكاً في ذلك .

ثم ذكر جل وعلا من آياته ومن مخلوقاته الدالة على وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة قال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي مفروشة ممتدة ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] .

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل المطر من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي من أنواع الثمار والزرع رزقاً لكم ؛ وهذا كله تفرد به رب العالمين .

قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ والخطاب هنا للمشركون الذين جعلوا مع الله سبحانه وتعالى الأنداد والشركاء ؛ يعبدونهم مع الله ويدعونهم مع الله ويستغيثون بهم مع الله ويلتجئون إليهم مع الله ، قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أي لا تجعلوا لله شركاء ونظراء ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ الخطاب للمشركون فما معنى قول الله لهم : ﴿ وَأَنْتُمْ ﴾ أي أيها المشركون ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ ماذا يعلم المشركون ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما يوضح معنى الآية : «أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله» ؛ المشركون يعلمون أنه لا خالق لهم غير الله ، إذا قيل لهم : من خلقكم ؟ من خلق السماوات ؟ من خلق الأرض ؟ من خلق الجبال ؟ كل ذلك يقولون : الله ؛ ولهذا يقول رب العالمين : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ أي أيها المشركون ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أي لله شركاء في العبادة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله . وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] ؛ أي وما يؤمن أكثرهم بالله رباً خالقاً رازقاً منعماً إلا وهم مشركون غيره معه في العبادة ؛ يدعون غيره ويستغيثون بغيره ويلتجئون لغيره سبحانه وتعالى . قال : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

((قال ابن كثير)) ؛ «ابن كثير» الحافظ الإمام المفسر صاحب التفسير العظيم الموسوم بـ : «تفسير القرآن العظيم» وهو من أنفع كتب التفسير وأنفعها وأجودها .

قال رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» ؛ هذه خلاصة بديعة مستنبطة ومأخوذة من هذه الآية ؛ أي الخالق لهذه الأشياء ؛ أي الخالق لكم ولمن قبلكم وللسماء وللأرض وللسموات وللنبات ؛ الخالق لهذه الأشياء كلها هو المستحق للعبادة ، أي لا أحد يستحق العبادة سواه ، الذي يستحق العبادة ذلاً وخضوعاً وانكساراً ودعاءً ورجاء هو الخالق لهذه الأشياء ، أما من سوى الله من الملائكة والأنبياء وغيرهم كل هؤلاء لا يستحقون من العبادة أي شيء ، لأن العبادة حقٌ للخالق الجليل والرب العظيم الخالق لهذه الأشياء الذي لا شريك له في خلقها . وسيأتي عند المصنف رحمه الله بيان عظيم للعبادة وذكر أفراد عديدة لها مع ذكر الدلائل على ذلك من كتاب الله عز وجل .

فهذا كلام يتعلق بالأصل الأول ؛ وهو معرفة العبد ربه ، ولا يزال لهذا الموضوع صلة في بيان أنواع العبادة ، لأنه تحصيل لنا مما سبق أن العبادة حق لله ، لا يستحق العبادة إلا الخالق لهذه الأشياء وهو رب العالمين لا شريك له ؛ وهذا يستوجب على كل مسلم أن يعرف العبادة ما هي ؟ وأن يعرف أفرادها ليفردها ويخلصها لله جل وعلا ، ولا يجعل مع الله شريكاً في شيء من ذلك .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .